الأحد الثاني من الصوم

بسم الآب والابن والرّوح القدس، الإله الواحد، آمين.

يا أحبّاء، سيّدنا الياس دائماً يغمرنا بمحبّته، ونحن في معهد اللاهوت في دير البلمند أيضاً محظوظون، لأنّ دير البلمند يقع في نطاق أبرشيته، فسيّدنا دائماً يرعانا بمحبّته وبتوجيهاته، وهذا بركة لنا جميعا، إن كان لي أنا شخصيا، أو إن كان لكلّ الشباب والصبايا الذين يتعلّمون في معهد اللاهوت.

اليوم في هذا الأحد الذي هو الأحد الثاني من الصوم، نقيم تذكاراً للقدّيس غريغوريوس بالاماس. نرى أنّ آباءنا القدّيسين حدّدوا أن يقام تذكار لهذا القدّيس، وهو أحد الآباء القدّيسين المعروفين، وقد عاش في القرن الرابع عشر، وفي نهاية حياته كان رئيساً للأساقفة على مدينة تسالونيك، وقبلاً كان راهباً ناسكاً في الجبل المقدس، وقد اختبر الحياة مع الرب، وأعطاه الرب نِعماً كثيرة، ودخل في جدال عقائدي مع أشخاص آخرين رفضوا أنّ النور الإلهي وأنّ النعمة الإلهية هي مجد الله غير المخلوق. فدافع القدّيس عن إحدى أهمّ العقائد التي تركها لنا في الإيمان القويم؛ لأنّ نور الله هو النور الإلهي الذي كشفه المسيح يسوع لتلاميذه على طور ثابور وتجلّى أمامهم، وقد رأوا هذا النور الذي سطع من الرب يسوع. هذا النور لم يكن كنور الشمس، أو مثل الكهرباء العادية، وأي ضوء مادي، ولكن هذا النور كان مجد الله، كانت فيه نعمة الله غير المخلوقة التي تحيي وتقدّس كل إنسان.

السؤال هنا: ونحن نصوم، ونحن في بدايات ومطالع الصوم الذي نتهيّأ فيه للفصح المجيد، نرى أن الكنيسة والآباء القدّيسين حدّدوا هذا التذكار لهذا الرجل العظيم، الذي تحدّث عن نعمة الله غير المخلوقة، عن مجد الله عن النور الإلهي، لماذا؟ لماذا الآباء القدّيسون اختاروا الصوم، ووضعوا هذا التذكار بشكل مفاجىء؟ وفيما نحن نصوم ونجاهد لكي نصل إلى يوم الفصح، فإذ بنا نرى تذكار هذا الرجل القدّيس في الوقت الذي حدّدت الكنيسة فيه يوماً آخر لكي نعيّد له، في الرابع عشر من تشرين الثاني من كل سنة، وقد وضع هذا التذكار خصّيصاً في الأحد الثاني من الصوم، هذا موضوع طويل ولكن دعوني أشدّد على زاوية واحدة بهذا الخصوص.

نحن نصوم في هذه الفترة، أحياناً كثيرة الناس يتساءلون: هل الصوم ضروري؟، هل الصوم لازم؟. أحياناً البعض منا يتساءلون: أليس الصوم بثقيل علينا نحن البشر؟ إنّنا نصوم، نمتنع عن بعض المآكل: اللحم، والبياض وكلّ منتوجاته. هل نستطيع أن نصوم؟ ألا يكفي أن يقول

الواحد منّا: أنا أستطيع أن أفعل الخير، وأن أذهب إلى الكنيسة وأصلّي، وأعطي الفقير... ألا يكفي أن أفعل هذه الأعمال الخيّرة ولا أصوم؟.

وأثناء الصوم تتكثّف الصلوات، كلّنا نعرف أنّه في فترة الصوم تقام الصلوات في الرعايا: النوم الكبرى، المديح، قدّاس البروجيازميني، وكلّ الصلوات الأخرى التي تحثّنا على التوبة، وعلى القداسة، والعودة إلى النفس، والابتعاد عن الخطيئة، والالتصاق بالفضيلة.

دعونا نفهم يا أحباء ما معنى الصوم الحقيقي. إنّ الحديث عن الصوم طويل جدا، ولكن فلنشدّد على زاوية واحدة منه. الصوم ليس أمراً متعباً على البشر، الصوم ليس حزناً، والصوم ليس بكاءً، لا يعيش الإنسان في فترة الصوم بالتعاسة، أو بالخوف، ولكنّ يعيش فترة الصوم في فرح وقوة. ولهذا وضع الآباء القدّيسون تذكاراً للقدّيس غريغوريوس بالاماس الذي تكلّم عن النور وعن النعمة وعن مجد الله، حتى يذكّرونا (الآباء القدّيسون) بهذا الأمر. نحن في الكنيسة نربط الصوم مباشرة ليس بالخوف والبكاء والحزن والخطيئة والتعاسة، بل بالفرح وبالنصر والقيامة. لأنّ الصوم هو مسيرة تقديس وتوبة، ومسيرة نترك فيها الإنسان العتيق، ونحاول أن نلبس الإنسان الجديد الذي هو الرب يسوع المسيح، حتّى نصل إلى يوم الفصح المجيد.

وَدَعونا نتذكّر في هذه المناسبة: المعمودية، ما هي المعمودية؟

في وقت من الأوقات، في طقس المعمودية، الكاهن يقول للمعتمد وللعرّاب وللناس الموجودين: "دعونا نتّجه نحو الغرب"، ويسأل ثلاث مرّات: "أترفض الشيطان وكلّ أعماله وكلّ أباطيله؟"، يجيب (العرّاب) على كلّ مرّة: "نعم أرفض الشيطان". إنّه يتّجه نحو الغرب لأنّه رمز الظلمة وإبليس. ثمّ يدعونا الكاهن أن نتّجه نحو الشرق ويسأل: "أتوافق المسيح؟"، "نعم". إنّه يتّجه نحو الشرق لأنّ منه يأتي النور الحقيقي والشمس، والمسيح هو النور الحقيقي، فنقول: نعم نوافق المسيح".

إذاً نتّجه نحو الغرب، ونرفض الظلمة والشيطان. ومن ثمّ نتّجه نحو الشرق، ونعرب عن إيماننا بالمسيح. ونريد أن نحيا لا بحسب إبليس وتعاليمه، ولا بحسب الظلمة وخطاياها، وإنّما بحسب النور وتعليم الرب يسوع الذي نقرّ أننا نؤمن به، ونريد أن نسجد له، ونعترف به أنّه سيد وملك وإله لحياتنا نحن.

هذا هو الصوم، هذا هو معنى حياة الإنسان المسيحي. مسيرة الإنسان المسيحي هي هذه المسيرة من عبودية نير الخطيئة إلى أن يتحرّر ويتحلّى بالنور الإلهي، الذي يعطينا إياه الرب يسوع بنعمته الإلهية.

والصوم هو هذه المسيرة، هذا يتوقّف على الإنسان. إذا كان الإنسان يعتقد أنّ كلّ الدنيا، وأن معنى الحياة بالنسبة إليه، يكمن في قطعة قماش يلبسها، أو في سيارة يركبها، أو في منزل يسكن فيه، أو في لقمة طعام يأكلها؛ هذا يكون مخطئاً إذا كان يعتقد هكذا. لأنّنا كلّنا نعرف أنّ هذا الشيء يزول ولا يبقى شيء منه. الله خلقنا على صورته ومثاله، أعطانا أن نكون آلهة، نحن أبناء الله العلي، لهذا نقول له: "أبانا الذي في السموات"، ولهذا لا شيء في الوجود يعطي معنى لوجود الإنسان غير الله. فإذا لم يمتلىء الإنسان من الألوهة في الحياة الإلهية سيبقى في فراغ وفي دوّامة ولن يجد معنى لحياته. ولهذا كلّنا نعرف أنّ الإنسان منذ البدء، وكلّ الفلاسفة والمفكّرين، كانوا ينشدون السعادة، وما هي سعادة الإنسان الحقيقية؟.

نحن نؤمن أن الرب يسوع الذي أحبّنا، وأتى إلينا، وتجسّد من العذراء مريم، ومات، واحتمل كلّ ما احتمل: البصاق والصلب والإهانة والدفن والموت وقام من بين الأموات وداس الموت، وكانت قيامته عربوناً لقيامتنا، هنا معنى الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا.

ولهذا، للصوم مكانة هامة جداً في حياة الإنسان المسيحي، هو نوع من الإمساك والتعفّف بالجسد والروح، الجسد يصوم عن اللّحم والبياض، والروح تصوم عن الخطيئة وعن الرذيلة، ويسعى الإنسان أن يقدّم ذاته نفساً وجسداً للمسيح كعروس، وكما أن العروس ترتدي في يوم إكليلها الطرحة البيضاء التي تدلّ على الجمال والطهارة، كذلك الواحد منّا يحاول أن يقدّم نفسه وجسده عروساً طاهرة للرب يسوع الذي نحبّه.

الرب الإله - بصلوات سيدنا الياس راعينا الجليل في هذه الأبرشية المحروسة بنعمة الرب، وشفاعة العذراء مريم، وجميع القديسين - يعطينا أن نقطع ميدان هذا الصوم، ويكون صيامنا مقبولاً لديه، ويقوّينا جميعاً حتّى نكون معه في ملكوته وأحضانه الأبوية، هو المبارك والممجّد إلى الأبد، آمين.